المضمون في شعر ابن حمديس الصقلي

د. نافع محمود خلف
كلية الآداب – جامعة بغداد

مقدمـــة :

لسنا بحاجة في هذه المقدمة – ونحن نتحدث عن المضمون في شعر ابـن حمديس(*) – إلى الدخول بتفاصيل اختلاف النقاد ، وتفاوت مذاهبهم مـن حيـث تفضيل جانب اللفظ أو جانب المعنى أو ارتباط الشكل والمضـمون دون انفصـام بينهما.

ولعل السبب في ذلك إن هذه القضية شغلت حيزاً واسعاً في مجـال النقـد الأدبي وقد ألتفت إليها نقاد الشعر خاصة الذين طالما أكدوا على وحـدة الشـكل والمضمون لأن الشاعر لا يفكر في المعاني المجردة ثم يبحث لها عـن الألفـاظ وإنما هو يفكر بالألفاظ ، ومثل هذا الرأي كان محل اتفاق النقـد الأدبـي قديمـة وحديثة(١).

ومعنى هذا أن الشكل ينمو بنماء المضمون ويرتبط به ارتباطاً وثيقـاً فـلا سبيل إلى الكشف عن المضمون الشعري أو النفوذ إليه إلا مـن خـلال التعـرف التفصيلي على سمات الشكل الفني الذي احتواه .

من هنا يمكن أن نقول أن العمل الشعري الناجح هو الذي تتمثل مادته فـي شكله بانسجام تام وعن طريقه يؤدي الشعر دوره فـي التـأثير الفنـي . أي أن الصياغة والمحتوى شيئان لا يمكن الفصل بينهما تماماً "لأنهما كوجهي العملـة لا ينفك أحدهما عن الآخر ومن الخطأ أن نفصل بينهما"(٢) لأن التفريق بين الشـكل كعامل فاعل من الناحية الجمالية ومضمون غير فاعل من الناحية الجمالية يلاقـي صعوبات لا يمكن تجاوزها "ولئن فيمنا من المضمون الأفكار والإنفعالات التـي

ينقلها عمل أدبي ما فأن الشكل سيضم كل العناصر اللغوية التي تم بها التعبير عن المضمون"[٣].

ومثل هذه الآراء النقدية تعيننا على القول أن العمل الشعري نظام كلي من الإشارات أو أبنية من الإشارات تخدم غرضاً جمالياً نوعياً ولا يمكن للمتلقي أن يدرك المعنى الشعري إلا من خلال جمال الشكل الذي يتذوقه، ويتأثر به فيكشف عن علاقات عدة يستوحي منها إيحاءات ودلالات فنية خاصة ، بل قل أن سر متعة المتلقي تكمن في "تذوقه للشكل ، وتفاعله بتأمل المعنى الشعري وهذا يتطلب اتحاد الشكل والمضمون ليتحقق في الشعر الجمال والإفادة معاً"[٤] ، وهو "يعبر عن تجربة إنسانية في صورة حية تغري باتباعها"[٥] وبذلك يكون "الشعر قادراً على إثراء العقل الإنساني والشخصية الإنسانية بحيث يمكن الإنسان من أدراك الحقيقة والإحساس بها والتصرف طبقاً لمقتضياتها"[٦] وبذلك يجعل الشعر دور المتلقي إيجابياً ويبعث في اليقظة . والإدراك الواعي وقد يكون هذا من أهم غايات الشعر.

والذي يمكن أن نقوله ونحن نتصدى المضمون في شعر ابن حمديس أنه جاء في معظمه تعبيراً عن مواقف إنسانية ، وأحداث سياسية واجتماعية اتخذها ابن حمديس موضوعات لشعره ، وهذا يعيننا على القول أن شعره ينتمي إلى الاتجاه التقليدي في الصياغة حيث التزم ابن حمديس بإطار القصيدة العربية القديمة ووفق في أن يجعل الانسجام واضحاً بين الشكل والمضمون ليجعل لهما هدفاً ووظيفة عن طريقهما سعا إلى توصيل الفكرة إلى مجتمعه بسيطرة الفعل على الخيال مع تصاعد العاطفة . والاهتمام بدقة التعبير والتوافق بين الصياغة والمضمون.

وقد لمسنا بوضوح أن المضمون في شعره جاء قريباً من الواقع في اهتماماته وليس من شك أن المعنى كلما جاء مفهوماً كانت الاستجابة له أقوى من لدن المجتمع .

فضلاً عن كل ذلك فأن هذا المضمون قد كشف عن مدى التزام ابن حمديس في قضايا مجتمعه التي كانت ينبوعا لا ينضب إلى جانب الالتزام الأدبي والوطني لهموم أبناء مجتمعه من خلال تركيزه على استيعاب ظروف هذا المتجمع، فمنها استمد صورة الشكلية المتباينة التي تكشف عن اهتمامات ابن حمديس التي قصد بها التأثير والقاء الضوء على ما كان يدور في واقعه.

لذلك كله كان من الطبيعي ان تتجدد مفاهيم فنية في مستويات مضمون شعره التي قد تتقارب أو تكاد لا تختلف إلا في طريقة التعبير عنها والتي تركزت محاورها في :

- المضمون الاجتماعي .
- المضمون الإنساني .
- المضمون الفكري .

المبحث الأول

المضمون الاجتماعي

لقد تفاعل شعر ابن حمديس بصدق مع أحداث المجتمع تأثراً وتأثيراً حيث أن القضايا الاجتماعية كانت من أبرز القضايا التي شغلت ذهن ابن حمديس فاتخذ من الشعر وسيلة فاعلة لنقد الأوضاع السياسية والاجتماعية .

ولعل هذا التفاعل الشديد كان من أهم الدواعي التي دفعتنا إلى الحكم على شعر ابن حمديس بأنه هادف لما تضمنه من رؤى ودعوات فنية نابعة من عاطفة شاعر اكتوى بأحداث عصره.

وشعر ابن حمديس يعد في طليعة الشعر في الأندلس الذي اسهم في الدعوة إلى الجهاد واليقظة والاستنهاض لمقاومة الاحتلال ومواجهة الصراع الاجتماعي.

ومن هنا تضمنت كثيراً من أساليب الطلب والنداء ، ونكتفي بالإشارة إلى صفحات (**) القصائد فهي دليل واف للبرهنة على قولنا ، ومنها قوله :

دعوا النوم أني خائف ان تدوسكم دواه وانتم في الأماني مع الحلم

وقوله :

فردوا وجوه الخيل نحو كريهة مصرحة في الروم بالثكل واليتم[٧]

وقوله :

وعزكم يفضي إلى الذل والنوى من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي

تقيد من القطر العزيز بموطن ومت عند ربع من ربوع أو رسم[٨]

ولعل أول انطباع نخرج به بعد قراءة هذا النمط من الشعر أنه ينضوي تحت موضوع "الجهاد" حيث تضمن دعوات جاءت بلهجة شديدة الإلحاح موجهة إلى أبناء المجتمع عامة وإلى من يقوده ، داعياً الجميع إلى التوحد والألفة واستنهاض الهمم واستثارة العواطف والحض على قتال الأعداء وكأنه يقول آن الأوان إلى التوحد والتعاون والارتكان على مجد الأمة وحضارة الأجداد في مواجهة الواقع الأليم ، ومثل هذه الصور تتوالى على هذا النسق في شعر ابن حمديس وتتسم بالواقعية (كان الشجاع الفرد وفينا عرمرم ، وأن بأيدينا الحديد لناطق ، فردوا وجوه الخيل ، وصولوا ببيض ..) . أما اللغة فهي مستمدة من قاموس الشعر الحربي مثل (الحرب ، القتال ، السيف ، الخيل ، الطرب ، الحق ، النصر ، ...) .

ومن تأملنا للمضمون الاجتماعي في شعر ابن حمديس وجدناه سمة بارزة يؤدي بأسلوب يقصد منه تعميق القيم الفنية التي تخدم المجتمع وتنمي فيه روح اليقظة وفي الوقت نفسه جاء رداً لاعتبار قيمة الشعر وأثرها في التوعية والتوجيه.

ومن السمات البارزة الأخرى في هذا المضمون مطالبته أن يكون الشعر تعبيراً عن وجدان الشاعر وتحمل مسؤولية رسالته في الإرشاد الواعي وتحمل ما ينتج عن تلك المسؤولية من ضرر ومعاناة .

وقد جاء هذا المضمون مؤكداً أن الشعر نقد الحياة وأنه من أفعل المؤثرات في حياة المجتمع فلا غنى عنه في كل عصر ومجتمع لأن الشاعر إنسان متميز بالحضور الذهني ، وسرعة الملاحظة وقدرة الاستيعاب والتحليل فهو كما يقول الدكتور محمد مندور "بقدر مسؤوليته إزاء قضايا الإنسان ومشكلات المجتمع ... والفنان الهادف هو الذي يسعى إلى قيادة الحياة والمجتمع نحو غايات أبعد مدى..[٩] فهو مطالب بالتزام طوعيا "أي مشاركته بالفكر والشعور والفن لقضايا قومه الوطنية والإنسانية وما يعانون من آلام وما يبغون من آمال فليس له أن يستغرق في التأمل في الجمال الخالد والخير المحض على حين يعاني وطنه ذل الاختلال أو عناء الطغيان وليس له أن يسترسل في خيالاته ومشاعره الفردية ووطنه من حوله يجاهد في سبيل آمال مشتركة[١٠] لأنه مثقف قومه ومعبر عن أزمة ضمير مجتمعه لأنه ترجمان عصره لما يسوده من أفكار وتقاليد وقيم يستوعبها هو أولاً ثم يمثلها في ذاته ويخرجها بصيغ فنية ذات معان وأفكار تهدف إلى التأثير في المجتمع إيجابياً.

وشعر ابن حمديس غالياً ما كان يمزج بين الواقع والمحتمل بل أحياناً يضخم المحتمل على حساب الواقع فهو يهدف إلى خلق روح المشاركة الوجدانية بين أبناء مجتمعه وإثارة المشاعر والأحاسيس والارتفاع بالمستوى الشعري إلى إيجابية مجدية في الحياة مع الاحتفاظ بالقيم الجمالية في الابتكار الإبداعي "فالأدب والفن بغير القيم الجمالية الفنية لا يفقد طابعه المميز فحسب بل يفقد فاعليته"[١١].

وشعر ابن حمديس يتميز بشدة انفعاله والتصاقه بواقعه الذي يمثل المحور الأساسي فيه فجاء بعيداً عن الالتواء والتناقض والغموض بل جاء استنهاضاً للهمم

في إطار صياغات لغوية عكست بعداً فنياً وجسدت قيماً جمالية كما نلمح في قوله الذي يثير فيه حماسة قومه ويفتخر ببطولاتهم .

يصولون صول الذائدين عن الهدى ويعفون عفو القائدين ذوي الرشد

وتسلب تيحان الملوك اكفهم إذا طوقوا أيمانهم قضب الهند[١٢]

ونلمس القيمة الجمالية في مثل قوله :

رمينا عداة الله في عقر دارهم بعادية في غمرة الموت تقحم

تعوم بها بين العلوج مُظِلّة كما حلّقَتْ فتح على الجو حوم[١٣]

كما يبدو لنا أن ابن حمديس لم يهمل التراث وقيمه الحضارية وإنما عده ينبوعاً يستمد من معانيه ويقلد صوره الفنية فجاء شعره امتداداً للتراث الحضاري الموروث وفي الوقت نفسه أثراء له ، ومن هذا المنطلق راح ابن حمديس ينفد من خلال شعره إلى قضايا مجتمعه والصراع المرير بين البقاء والفناء في مواجهة الأحداث المختلفة .

ولطالما استشهد بالواقع التاريخي ومقارنته بالحاضر الذي عاشه محاولاً تكيفه إلى الأحسن والأمثلة على ذلك كثيرة[***] منها قوله :

أعليت بين النجم والدّبران قصرا بناه من السعادة بان

فضح الخور نق والسدير بحسنه وسما بقمته على الإيوان[١٤]

وقوله :

تولت جنود بالريح حربهم وليس لمخلوق على حربها صبر

وقوله :

هناك شفى الإسلام منهم غليله بطعن له بتْرٌ وضربٍ له هَبْر[١٥]

وفي ضوء ما تقدم نخلص إلى أن المضمون الاجتماعي شغل حيزاً كبيراً في شعر ابن حمديس وتناولانه لدرجة أن مضمونه يكشف عن مهمة الشعر

الاجتماعي ووظيفته في الإسهام بالتوجيه والتوعية وحب الوطن واستنهاظ الهمم والتلاحم بين الناس إلى جانب قدرته على كشف علاقة الشاعر بالقيم الاجتماعية السائدة في بيئته وكذلك الأحداث السياسية التي يتخذها مادة لشعره فيعبر عنها ويبرزها محسوسة في صور فنية من واقع مجتمعه .

ومن هنا يمكن القول أن شعر ابن حمديس استغل التأثير الفني لتنفيذ دعوته ليلقي الاستجابة والقبول من لدن المجتمع الأندلسي ، ونيل مكانة مرموقة في الحياة الأدبية الأندلسية ، وذلك بما احتواه من مضامين خلقية ونفسية ومثل عليا يقوم عليها الالتزام الاجتماعي إلى جانب التعبير عن الأفكار والعواطف في إطار القصيدة العربية وقيمتها الجمالية المتمثلة في تقدير العمل الشعري والاهتمام بصياغاته المتنوعة .

المبحث الثاني

المضمون الإنساني

وهذا المضمون يعني النظرة الواسعة للحياة والمجتمع الإنساني نظرة تعاطف وإرادة الخير ومناصرة الحق رغبة في نشر القيم السامية ومثلها العليا ثم العمل على إيجاد مجتمع يتصف بفضائلها ، إذ أن رسالة الشعر تتمركز على نشر الفكرة الإنسانية وإبرازها للوجود والإفادة منها في رقي الحياة البشرية .

ومن قراءتنا الفاحصة لشعر ابن حمديس يمكن القول بصفة عامة ، أنه جاء امتداداً للشعر العربي الإنساني في طبيعته خاصة أنه شعر هادف يرتكز في فاعليته على الإسهام في العناية بالإنسان واتخاذ قضاياه محوراً أساسياً وموضوعاً يدور حوله ويصب في مجالات خدمته .

وإذا تأملنا شعر ابن حمديس نجده يؤكد على الناحية الإنسانية كما في قوله:

أراني غريباً قد بكيتُ عريبةً كلانا مشوقٌ للمواطنِ والأهل

بكتني وظنتْ أنني متّ قبلها فعشتُ وماتت-وهي محزونة-قبلي[١٦]

ونلمس الحالة الإنسانية في مثل قوله :

كم غريب حنت إليه غريبة وكئيبٍ شجاه شجوُ كئيبةْ[١٧]

ويتضح البعد الإنساني أكثر في قوله :

ولما رأيت الناس يُرْهَب شرهم تجنبتهم واخترتُ وحدة راهب[١٨]

وهذه الأبيات تؤكد رهافة حساسية ابن حمديس والتزامه هموم غيره وقد يكون الهدف الذي يسعى إليه هو التأثير الفني في وجدان المتلقي ومشاركته وقد استدل البحث على هذا من شعره الذي لم يكتف مما تقدم بل نجده يستمد ألفاظ الشعر السالف ومعاني لمحاذاة الصياغة الفنية وقد يكفينا دليلاً على ذلك صفحات الديوان التي جاءت لتعكس ما أشرنا إليه(****).

ومما يؤكد أسهامه في الدعوة إلى الأخلاق والتمسك بالفضائل قوله في معنى القناعة والثقة بالله عز وجل :

كن واثقاً بالله سبحانه فهو الذي يصرف عنك الخطوب[١٩]

وأصرف إليه الوجه عن معشر قد صرفوا عنك وجوه القلوب

ونجده يرسم صورة للصدق ويدعو إلى التمسك به ويرسم صورة مقيتة للكذب حيث يقول :

سارع إلى الحق وعول على قول حكيم بارع الحكمة[٢٠]

إن شئت أن تحيا وكن صادقاً فإنما الكذاب كالميت

وإلى جانب المضمون الاخلاقي ونزعته الصارخة جاءت النزعة الإنسانية واضحة وفي الوقت نفسه تكشف عن روح الشاعر الإنسانية بطبيعتها وعن

عاطفته المرهفة فهي تعبيرات تتفق مع المبادئ الإسلامية في دعوتها إلى العدل واحترام كرامة الإنسان .

ولعل الملحوظ في شعر ابن حمديس أن صانعه لم يكن مسروراً بقصائده، بل كثيراً ما نجده ينكمش على نفسه جزعاً مما يعانيه وطنه وأبناؤه من الآلام والأحزان التي لا حول ولا قوة له فيها إلا تفجير طاقاته وشحذ مشاعره لاتخاذ الكلمة الفنية سلاحاً نافذا في التوعية وإيقاظ مشاعر الناس بما يدور حولهم ومن ثم هز ضمائر الأمراء من ذوي الأثر لمواجهة الأخطار المحدقة بالوطن .

فنسمعه يقول :

ولله أرض أن تحديتم هواءها فأهواؤكم في الأرض منثورة النظم

وعزكم يفضي إلى الذل والنوى من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي(٢١)

ويقول مستصرخاً ، داعياً إلى الفداء ، والتمسك بالأرض :

تقيّدْ من القطر العزيز بموطن ومتْ عند ربع من ربوعك أو رسم

وإيّاك يوماً أن تجرّب غربة فلن يستجيز العقل تجربة السم(٢٢)

والذي يبدو لنا أن ابن حمديس في أكثر شعره يتخذ من الأحداث موضوعات لقصائده ويرسم صورها بألفاظ موحية يبغي من ورائها إثارة النفوس وتحريك الشعور الإنساني وكأنه يريد تأكيد التزامه بقضايا مجتمعة وتمثل واقعيا والاهتمام بكل معانيها .

فكانت هذه النزعة امتداداً لدعوة الشعر العربي على مر عصوره ، حيث نجد تردد بعض عباراته في شعر ابن حمديس من مثل : سقى الله ، وثغر الجهاد، ومجرى الجياد ، وعزكم يفضي ، أحن حنين ، سبيل الهدى ، إذا ما غزوا ، أهل الجبن ، لهم يوم الطعن .

كما لمسنا في كثير من شعره عرضا لصور فنية توصي بالخوف والهلع ثم تتدرج إلى دعوة أبناء المجتمع إلى الوقوف أمام عناصر الشر والدمار ومواجهة المخاطر والتلاحم الصميمي بين أبناء المجتمع .

وإلى جانب هذه التعبيرات نجد تعابير أخرى توحي بالبهجة وأمل اليقظة والتفاؤل وقد جمعت بين التفاؤل والتشاؤم بطبيعة من الشعر .

ومن خلاله النزعة الإنسانية في شعر ابن حمديس تبدو لنا الدعوة إلى الزهد في الحياة والأبتعاد عن الواقع المؤلم ومذكياته الشائعة يومذاك وقد برزت الدعوة إلى المحبة والتآخي بين أبناء الوطن في عرض فني جميل حالم بفضائل الأخلاق والإيثار الذاتي وعودة القيم الحميدة ومثلها العليا . من ذلك قوله :

ولولا دفاع الله عنا بلطفه لَصُبّتْ من الدنيا علينا خطوبها[٢٣]

وقوله :

صبرنا للخطوب على صروفٍ إذا رُمي الوليدُ بهن شابا

ولم تسلم لنا إلاّ نفوسٌ وأحسانٌ نكرمها احتسابا[٢٤]

ونسمعه يحذر من الدنيا وأغراءاتها حيث يقول :

وغرتك دُنْياك إذ فوّضت إليك أمانيها الكاذبة

أصاحبةٌ خلتها ؟ إنها بأحداثها بئست الصاحبة[٢٥]

ومن هنا نجد في شعر ابن حمديس حشداً من الصور المتباينة لتجسيم ما يعانيه الشاعر من مرارة الأحداث . وأن دل هذا على شيء فهو دليل على عمق شعوره الإنساني بما يقاسيه أبناء وطنه . وعلى مدى اهتماماته بشؤون غيره ، فجاء تعبيره بعاطفه شعورية عامة تفيض بالأسى والتمزق النفسي نتيجة الأحساس بشعور غيره فهو في هذا الاتجاه يسعى إلى تفتح العيون وتفتق الأذهان ونقل ما يحدث بالواقع إلى الناس بطبيعة الشعر وقوة التأثير الفني .

وفي الغالب تميز شعره بالمضمون الإنساني ممثلا في أصالة الموهبة وفطرية الألهام الفني الذي كان أضخم دعامة لخلوده واستمرار الإيحاء بمعاني الإنسانية حيث كان يعتني ابن حمديس باختيار الصورة الفنية الحسية الإيحائية المقتبسة من واقع المحيط الذي تعيشه المرحلة الأدبية والاجتماعية في الأندلس.

المبحث الثالث

المضمون الفكري

يهدف المضمون الفكري – كما يبدو – إلى الارتفاع بقيمة الفرد العادي وتوعيته فكرياً عن طريق التأثير الفني .

والذي يبدو لنا ، ونحن نتفحص شعر ابن حمديس ، أنه اهتم بأبراز الآراء التأملية في أحلى معانيها ، لذلك جاء شعره متدفقاً من أعماق نفسه تعبيراً عما يدور في ذهنه من خواطر والتماعات فكرية تفرض نفسها على وجدانه ومشاعره، فيجيء ابداعه حاملا تأملاته التي تعني (ذلك التأمل الفكري الذي ترتفع فيه الذات عن ملابسات التجربة المباشرة لترى رأيها في طبيعة الحياة ومغزاها ، ووضع الوجود والإنسان من الطبيعة والمجتمع)[٢٦].

ولهذا فقد عني ابن حمديس أهمية التجارب في حياة الإنسان بل أشاد بدورها لأنها تهدى الإنسان إلى ما لا يعرفه :

ويا ربَّ نبتٍ تعتريه مرارةٌ وقد كان يُسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجربتي أموراً جهلتها وقد تجهلُ الأشياء قبل التجارب
ومن ظنّ أمواه الخضارم عذبةً قضى بخلاف الظن عند المشارب[٢٧]

والمتأمل في هذه الأبيات يجد أنها جاءت بمضامين فكرية تدعو إلى تعميق التفكير وتحض على الإفادة من وميض الخيرة ونور التجربة والارتكاز على العلم الذي هو من دعائم الدين الذي يدعو إلى التفكير والاستنباط ثم السعي إلى اكتشاف

الحقائق الجوهرية إذ كلما زاد الاكتشاف في الأرض أو في السماء زاد الإيمان بعظمة الله وقدرته ثم الخشوع له – سبحانه – والإيمان المطلق بقدره .

إذا ماتت النفس بعد الحياة فماذا ترى حاصلاً في يديها

تسلّ بدنياكَ وأنظره إلى نفوذِ المقادير في عالميها

وإنّ لديها متاعاً قليلاً فكن زاهدَ النفس فيما لديها[٢٨]

هذه هي الحياة التي أوجدها حكيم مقتدر ، كتب على الإنسان أن يحيا وأن يموت فيها ولكن الأمر لا ينتهي عند الموت فهناك حياة أخرى فيها الحساب والعذاب. أو الثواب والعقاب اللذان على الإنسان أن يتهيأ لهما وأن يخافهما . فالبداية والنهاية في رؤاه واضحة ليس فيها شك أو اضطراب ، وإنما توازن واتزان ، فأن الإنسان سيصل إلى نهايته يوماً ، لذا فليس للإنسان إلا أن يعد نفسه لمواجهة قدرة المحتوم ، وأن يتزود لما بعده من حياة ، وما دامت مغفرة الله أمراً غيباً فأن الإنسان يبقى في قلق ، ولكن تبقى نجاته ، هنا بإيمانه المطلق بالله سبحانه وتعالى ، كما نرى في قوله :

من سلّم الأمر لله نجا ومن عدا القصد واقع الهلكة[٢٩]

وهكذا كانت افكار ابن حمديس في خلق الإنسان وموته وبعثه من جديد مثالاً لأفكار كل مؤمن إيماناً مطلقاً بقدرة الله وقدره . لذلك نسمعه يقول :

كن واثقاً بالله سبحانه فهو الذي يصرف عنك الخطوبْ

وأصرفْ إليه الوجْه عن معشرٍ قد صرفوا عنك وجوه القلوب[٣٠]

أن عمر الإنسان قصير في رأيه ، فليس هناك مسافة زمنية كبيرة بين بدء الحياة ونهايتها ، فما يكاد رأس الإنسان وطل مسلم مستسلم لقضاء الله وقدره ، حتى يداهمه بياض الشيب .

قدحَ المشيبُ بمفرقيه زنادا لا يستطيعُ لناره أخمادا[٣١]

وتتكرر صورة الشيب عنده(*****) وهو عنده مظهر من مظاهر الهم ، والهم نذير الموت في نظره ، هذا هو الأساس الفكري والنفسي عنده بشكل عام أنه يؤدي إلى بروز الشيب الذي يجلب هو الآخر هماً جديداً يضيفه إلى الهم الأول الذي أوجده .

والعمر يذبلُ في منابتـــــه غرْسٌ ، ويلبسُ نظرةً غرس

أضحى بوحشتي المشيب ولي بعد الشباب بذكره أنس(٣٢)

وظلت مثل هذه الأفكار تتكرر في شعر ابن حمديس عن طريق تصويره للزمان أو مصائبه أو أحداثه في قصائده المتنوعة الأغراض والمراحل الزمنية ، وعلى أي حال فإن كل الصور المؤلمة في شعر ابن حمديس تنبئ عن اختلاط الفكر بالشعور وتعاونما معا لتوفير العمق الإنساني لهذا الشعر حتى يظل متجدداً على الأيام .

وليس من شك أن ابن حمديس يستقي مصادر شعره من التراث الفني وتجارب المفكرين السابقين. وذلك لإذكاء النفوس في بيئته . إذ أن ابن حمديس – في رأينا – يرى أن مجتمعه جزء جوهري في حياة شعره لأنه يعبر عن لسان الحال ، فيوسع الأفكار ويخدم الغايات . ولعل ابن حمديس كان يدرك أهمية المعنى الشعري وتأثيره على النفوس ويرسم لنا صورة الكلام المؤثر حيث يقول :

زنْ بديع الكلام وزناً مُحرَّرْ مثل ما يوزن النضارُ المشجَّرْ

وتكلمْ بما يزينُك في الحـ ـو ل وتفتى به علاءً ومفخر(٣٣)

فأبن حمديس يعرف جيداً أهمية الشعر وخطورته ، لذا استخدمه بطرق توحي بأفكار وعواطف نبيلة ، ينشد من وراثها التأثير وإثارة أكرم المشاعر في نفوس أبناء مجتمعه خاصة وأن شعره – على الأغلب – جاء خالياً من الدوافع الشخصية المحضة ، ولعل قوله :

يقولونَ لي : لا تجيـــد الهِجـــاءَ فقلتُ : و مالي أُجيـدُ المديـــحْ ؟

فقالوا : لأنّك ترجو الثـــــوابَ وهذا القيـــاسُ لعمـــري صحيـــح[٣٤]

يمكن أن يكون دليلاً على ترفع أبن حمديس عن صغائر الأمور ، والتزامه معياراً خلقياً في القول : ورفضه الغش والخداع ، والسير في مسالك الغدر :

والغدرُ قد ملـــي الزمـــان بـــــه قدمـــا ، وكم نطقـت به السير[٣٥]

ولعل ما تقدم يعيننا على القول : أن مضمون شعر ابن حمديس جاء دعوة إلى حب الوطن والالتزام بالقيم الأدبية وفضائل الأخلاق ، لذا جاء قائمـاً علـى التبسيط والوضوح اللغوي إلى جانب الاهتمام بالتفصيلات ذات العلاقـة بـالواقع الأدبي الذي ساد في عصره والواقع الحقيقي وذلك لكي يؤدي الشعر مهمتـه فـي تقديم الخدمة الأدبية والاجتماعية معاً في إطار بعد فكري استنزله الأنفعال القـوي المجرب في داخل ابن حمديس نفسه ، لهذا لمسنا في شعره تعاون العقل والقلـب تعاونا وثيقاً أخرج فكراً مصبوغاً بشعور صادق ولهذا تحقق لشعر هـذا الشـاعر الأندلسي عنصر من الجدة متميز .

الهوامش :

* - تنظر أخباره في : وفيات الأعيان ٣٠٢/١ . نفع الطيب تحقيق د. إحسان عباس ٣٥/٢ والمطرب ص٥٤ وشعر الطبيعة في الأدب العربي ص٢٦٨ وفي الأدب الأندلسي ص١٠٠ .

١ - ينظر : نقد الشعر ص١٥٣ ودلائل الأعجاز ص٣٨٠ وكذلك فن الشعر للدكتور إحسان عباس ص١٩٠ ونظرية الأدب ، رينيه ويلك واوستن وارين ص١٨٠-١٨١.

٢ - البيان العربي : د. بدري طبانة ص١٨٦.

٣ - نظرية الأدب ص١٨٠.

٤ - ينظر : الأسس الجمالية في النقد العربي للدكتور عز الدين إسماعيل ص٢٥٠.

٥ - في نقد الشعر للدكتور محمود الربيعي ص٤٣.

٦ - المصدر نفسه ص٤٣.

** - ينظر ديوان ابن حمديس تحقيق د. إحسان عباس : ص١٧و٢٨و٣١ و٣٣و٤٤و٦٥و٩٦و١٤١و٢٧٥و٣٨٤و٣٨٥و٤١٦و٤١٧و٤١٩و٤٢٠.

٧ - الديوان ص٤١٦.

٨ - نفسه ص٤١٧.

٩ - في النقد الأدبي ص٧١.

١٠ - ينظر المدخل إلى النقد العربي الحديث ص٤١٣.

١١ - في نقد الشعر ص٨٣ وكذلك ينظر النقد والنقاد المعاصرون ص٢٣٤.

١٢ - الديوان ص١٥٣.

١٣ - نفسه ص٤١٤.

***- يراجع الديوان في الصفحات ٢٩و١٤٩و١٧٢و٢٥٢و٢٥٣و٣١٢و٤٥٨و ٤٩٤و٥١٤و٥٥١و٥٥٨.

١٤ - الديوان ص٤٩٤.

١٥ - نفسه ص٢٥٣و٢٥٥.

١٦ - نفسه ص٣٦٦.

١٧ - نفسه ص٢٦.

١٨ - نفسه ص٣.

****- لمزيد من الشواهد الشعرية ينظر الـديوان ص١٤، ١٦، ٢٦، ٢٨، ٣٠، ٣٣، ٣٦، ٣٧، ٤١، ٤٤، ١٢٤، ١٤٢، ٢٩١، ٣٢١، ٣٥٩، ٣٦٤، ٤٨٦، ٥٥٥.

١٩ - الديوان ص٤٤.

٢٠ - نفسه ص٧٤.

٢١ - نفسه ص٤١٧.

٢٢ - نفسه ص٤١٧ .

٢٣ - نفسه ص٤٤.

٢٤ - نفسه ص١٦.

٢٥ - نفسه ص٤٠.

٢٦ - مجلة الشعر ، مقالة الدكتور محمد علائي العدد ٤ لسنة ١٩٦٤.

٢٧ - الديوان ص٢٩.

٢٨ - نفسه ص٥١٨.

٢٩ - نفسه ص٥٥٥.

٣٠ - نفسه ص٤٤ .

٣١ - نفسه ص١٤٣.

*****- يراجـع الـديوان ص١٤٣، ١٤٤، ١٦٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٩٦.

٣٢ - الديوان ص٢٨٢.

٣٣ - نفسه ص٢٠٤.

٣٤ - نفسه ص٩٤.

٣٥ - نفسه ص٢١٨.

مصادر البحث :

١ - الأسس الجمالية في النقد العربي ، الدكتور عز الدين إسماعيل، دار الفكر ، ط٣ ١٩٧٤م.

٢ - البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط الأولى ١٩٥٥م ، للدكتور بدوي طبانة .

٣ - دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، طبعة المنار ١٣٦٧هجرية.

٤ - ديوان ابن حمديس الصقلي ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٠م .

٥ - شعر الطبيعة في الأدب العربي ، الدكتور سيد نوفل ، ط٢ ، دار المعارف المصرية ١٩٧٨م .

٦ - فن الشعر ، الدكتور إحسان عباس ، ط٣ ، بيروت ١٩٥٩ م .

٧ - في الأدب الأندلسي ، الدكتور جودت الركابي دار المعارف المصرية ١٩٧٥م .

٨ - في النقد الأدبي، الدكتور محمد منذر، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٦م.

٩ - في نقد الشعر : الدكتور محمود الربيعي ، ط٤ ، دار المعارف المصرية ١٩٧٧م.

١٠ - مجلة الشعر العدد الرابع لسنة ١٩٦٤م ، مصر.

١١ - المدخل إلى النقد الأدبي الحديث، محمد عجمي هلال ، مطبعة الرسالة ١٩٥٨م.

١٢ - المطرب من أشعار أهل المغرب : لأبن وحيه الكلبي، تحقيق د. مصطفى عوض الكريم الخرطوم ١٩٥٤م.

١٣ - نظرية الأدب : رينيه ويلك وأوستن وارين ، ترجمة محي الدين صبحي، ١٩٧٢م.

١٤ - نفح الطيب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٦٨م.

١٥ - نقد الشعر : قدامه بن جعفر ، تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ١٩٧٩م.

١٦ - النقد والنقاد المعاصرون : الدكتور محمد منذر ، مطبعة نهضة مصر (د.ت) .

١٧ - وفيات الأعيان : تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة ١٩٤٥م.